قـــراءة الـنـصـوص وفـلـسـفـة الـدلالـة

الملاحظة (٣):
أشرنا إلى ركون جل القائلين بإلهية الواضع إلى النصوص المقدسة، والمصير إلى مذهب ((التوقيف)) في وضع اللغة ونشأتها. ولم نعالج الاستدلال بالنصوص، إذ لا تشكل النصوص لدى عامة الباحثين الدليل الحاسم، إنما هي مناخ عام تترعرع فيه بعض الرؤى، وتفرض نفسها على النص بقراءته وتفسيره بما ينسجم مع الرؤى القبلية التي يستنطق النص هنا في ضوئها.

آية الله السيد عمار أبو رغيف

٧

النص القرآني إذا عكفنا على النصوص الإسلامية ، التي جاءت في القرآن الكريم والسنة الشريفة، واتكأ عليها القائلون بأن الله تعالى واضع اللغة، وأن اللغة ليست مواضعة واصطلاحا من قبل الجماعة الإنسانية نجدها محصورة في بضعة نصوص كقوله تعالى : " وعلم آدم الأسماء كلها " ، وقوله تعالى: "علّمه البيان" ، ونظير ما أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي رافع قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (مثلت لي أمتي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلّها كما علم آدم الأسماء كلّها). لكن تعليم الأسماء الذي ورد به النص لم يتلقه المفسرون على معنى واحد يحملنا على الاستدلال بالآية لإثبات توقيفية اللغة، بل حتى ترجيح هذه الدلالة بشكل معقول. فقد خضعت الآية للتأويل أيمّا خضوع، فقد جاء في (المحرّر الوجيز) لابن عطية: (اختلف المتأوّلون في قوله "الأسماء" ... ذهب ابن عباس وقتادة ومجاهد إلى أنه علّمه اسم كلّ شيء من جميع المخلوقات ...وقال حميد الشامي: علّمه أسماء النجوم فقط، وقال الربيع بن خثيم: علّمه أسماء الملائكة فقط ... وقال الطبري: علّمه أسماء ذريته والملائكة ...وقال قوم: عرض عليه الأشخاص عند التعليم .. وقال قوم: بل وصفها له دون عرض الأشخاص ... وقال القاضي أبو محمد: وهذه كلّها احتمالات قال الناس بها).

أما الطبرسي في مجمع البيان فقد ذكر في تفسير قوله تعالى (.. الأسماء) وجهات النظر المتعددة وقال: (اختلفوا فقيل: فقيل علمه بأن أودع قلبه معرفة الأسماء وفتق لسانه بها، وقيل علّمه إياها بأن اضطره إلى العلم بها وقيل علمه لغة الملائكة).

والفخر الرازي في تفسيره الكبير لم يشذ عن القاعدة العامة في تفسير الأسماء فقد أتى على الاختلاف الكبير في تفسير الأسماء، إذ أشار إلى قضية توقيفية اللغة أو اصطلاحيتها، عند الأشعري والجبائي والكعبي وعند أبي هاشم، ثم ذكر القول المشهور. إذن الاختلاف هو السمة البارزة في تفسير هذا النص بل اختلاف المتأولين، فهو نص قد اخضع للتأويل .لم يكن النص (نصّا)، ولا ظاهراً تتوفر له قرائن الترجيح في داخله أو عبر النصوص الشارحة، التي جاءت بها السنة الشريفة؛ وآية ذلك هي أن جميع النصوص المقدسة وغير المقدسة تتذبذب دلالاتها حينما تتحدث عن عالم الأسرار، وتسود النزعة الذاتية في فهم النص! فاللغة اليوم ظاهرة موضوعية قائمة بالفعل، ويمكن إخضاعها لفروض الباحثين، والتحقق من قيمة، ورغم ذلك تواجه عامة البحوث اللغوية أسراراً في هذه الظاهرة، تطلبت على طول العلم المدون مزيداً من الأسئلة، وفيضاً من البحوث والدراسات. فكيف إذن، ونحن نتحدث عن هذه الظاهرة وهي تظهر من العدم إلى الوجود، وتفصلنا عنها حقب متمادية! وهنا أنقل نصاً طويلاً لابن جني لنعايش تجربة باحث مع سر اللغة ورموز نشأتها: "واعلم في ما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعي والخوالج قويّة التجاذب لي مختلفة جهاتِ التغوّل على فكري.

وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقّة ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلْوة السحر فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحَمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآمادِه صحّة ما وفّقوا لتقديمه منه ولطف ما أسعدوا به وفُرق لهم عنه وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعزّ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه وأنها وحي. ثم أقول في ضدّ هذا كما وقع لأصحابنا ولنا وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قَبلنا وإن بعد مداه عنا مَن كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جَنَاناً فأقف بين تين الخَلّتين حسيراً وأكاثرهما فأنكفئ مكثوراً وإن خطر خاطر في ما بعد يعلّق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به وبالله التوفيق.

النص التوراتي:

يتمسك بعض أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية بالنص الوارد في العهد القديم حيث جاء فيه:

("١٩" وجبل الرب الإله من الأرض كل الحيوانات البرية وكل طيور السماء فاحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها.٢٠□ فدعا ادم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية..).

ذهب الشرّاح الكنسيون إلى أن اللغة هبة من الله، وأن لغة الإنسان القديم كانت واحدة تنتظم فيها أُمم شتى حتى سقوط برج بابل، وتفرق أبناء نوح عن بعضهم في البلاد. وهناك رأي يفسر انقسام العصور الوسطى بشأن نشأة اللغة إلى توقيفيين (الكنسيون) واصطلاحيين (المدرسيون) الذين ذهبوا إلى أن اللغة مواضعات اجتماعية، فيرجع هذه الثنائية إلى تأثير الإغريق وثنائية أفلاطون – أرسطو. فالكنسيون اخذوا بمذهب أفلاطون، أما المدرسيون فاقتفوا آثار أرسطو.

وأياً كان الرأي بشأن هذا التفسير، لكن تأثير أفلاطون على خيارات الكنسيين فرض غير مستبعد، لوضوح أن النص التوراتي المتقدم وغيره من نصوص العهدين يمكن تأويلها، بما يتناسب مع فرضية المواضعة والاصطلاح، إذ لا ينكر أي مؤمن بقصّة الخليقة وفق المضمون الديني الذي جاءت به الكتب المقدسة، أن قضية ادم وتواصله مع نداءات (الله) ومع زوجه وذريته قضية يجب تفسيرها خارج مسألة المواضعة اللغوية، لوضوح فقدان الحياة الاجتماعية والهيئة التي تتحمل مسؤولية الاتفاق والاصطلاح. إنما البحث ينصب على نشوء اللغة في حياة الجماعات الإنسانية المتنوعة، ونص التوراة دون عناية كثيرة في التأويل لا يتناول هذا الفرض إنما يتحدث عن قصة الخليقة الأولى، وهي أمر يمكن الإيمان به ، دون تعارض مع مذهب الاصطلاح والمواضعة !

على أن فرضيات الإلهام والوحي في مذهب التوقيف لا تصلح بوجه لتفسير نشأة اللغة نظاما ومفردات كما تقدمت الإشارة إلى ذلك. والفرضية الوحيدة في إطار مذهب التوقيف، التي تصلح أن توضع أمام الدرس الجاد هي تلك التي أشار إليها النائيني وبعض آخر من أسلافه المحققين في اللغة وأصول الفقه، والتي دافع عنها نعوم تشومسكي، والتي تجدها أيضا عند (ماكس مولر) وسنحاول الوقوف عندها بشكل أكثر عمقاً وتفصيلاً، خلال درسنا لبحوث (الوضع)، (والدلالة) القادمة.

النزعة الكوزموبوليتانية في الحقل البيئي

سلام الربضي ★

يجب ألا تكون النزعة الكوزموبوليتانية في الحقل البيئي، مجرد شكل من أشكال الأممية، تحت مقولة إنقاذ كوكب الأرض، فقد يؤدي ذلك إلى تعارض مع مصالح النزعة المحلية، وقد لا يكون من الممكن إقناع أحد، بوجود اهتمامات يجب أن تكون لها الأولوية، أكثر بعداً من الناحية التجريبية. أيضاً، ذلك يصح بالقدر نفسه، في الحالات السياسية الثقافية، الأكثر صعوبة، والتي توجد فيها أنواع مختلفة من المخاوف البيئية، على اعتبار أن مسببات المشكلات البيئة، معقدة للغاية، ومفتوحة أمام اجتهادات الجدل والاختلاف.

وفي السياق العالمي البيئي،لا بد من طرح فكرتي المواطنة السياسية والحيز العام، وهذا يتطلب الحاجة إلى حلول سياسية شاملة، مما يطرح التساؤل: عما إذا كان يتعين علينا، النظر إلى أنفسنا بصفتنا مواطنين عالميين؟ أم مواطني دولة قومية؟ أم يجب علينا التعامل مع الإشكاليات البيئية من منطلق واقع طبيعة القضايا المطروحة؟

وفقاً لذلك، يمكن اعتبار الروابط المحلية والعالمية، تشكلان عناصر رئيسية، سوف تؤثر في فكر وممارسة، السياسة البيئية في العقود المقبلة.ومع أن هاتين الرابطتين تمثلان اتجاهات مختلفة في السياسات البيئية، فإنه يمكن توقع حدوث ثلاث تطورات:

أولا: زيادة حدة الصراع والنضال من أجل الموارد على الصعيد المحلي. نتيجة لتعاظم توجهات السوق والدولة من أجل تنمية الموارد. ومع تكثيف المفاوضات حول قضايا الأرض، سوف تحتل هذه الاتجاهات موقعاً مركزياً على جدول أعمال السياسات البيئية.

ثانيا: مع زيادة حدة التنافس، يُرجح تزايد توجه الفاعلين بالسوق والسياسة، نحو التفاوض والتعديل، في قضايا الاهتمام البيئي. فمثلاً، أعادت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية والبنك الدولي، تعريف سياساتها بصورة جوهرية، في ما يتعلق بمسائل الإقراض، وإعادة التوطين، بما يتلاءم مع بعض المسائل البيئية. كذلك، نلاحظ ظهور ترتيبات مؤسسية بيئية عالمية، أمثال، اللجنة العالمية للسدود، حيث يجتمع الفاعلون في السوق والسياسة وهم:

١- شركات القوة الهيدروليكية الأساسية.
٢- ممثلو الدول.
٣- الفاعلون في الحركات البيئية.

للتفاوض حول أطر ومعايير مقبولة، لاستثمار موارد المياه وتنميتها. فالضغوط التي توضع على كاهل السياسة والفاعلين من أجل تعديل الاهتمامات البيئية، يمكن أن تسفر عن ظهور مؤسسات أفضل، لتقييم حجم المخاطر البيئية وأثرها، فضلاً عن تخفيفها والتعويض عنها.

ثالثا: يجدر توقع درجة معينة من النزعة المهنية، في القضايا والاهتمامات البيئية. فعلى الرغم، من ديناميكية القوة التي تستلزمها السياسات البيئية، في مواجهة المصالح المحلية، يمكن رؤية التضافر بين الاهتمامات البيئية للمواطنين، على نطاق واسع، يتجاوز مجرد سياسة خطر فقدان موارد الرزق، إلى قضايا مثل: تلوث الهواء والمياه، وقضايا الصحة، والحق في الحصول على المعلومات، والحق في المشاركة.

رابعاً: عملية التفاعل التي تقع في المجتمع المدني وحركاته في مجال حقوق الإنسان، من المرجح، أن تغطي أوجه التشابه والمقاربات في الاتجاهات المستقبلية، وقد يثمر عن ذلك، تشكيل جماعات، تضم اهتمامات بيئية من منظور حقوق الإنسان. تؤكد المناقشات المعاصرة حول البيئة، عدداً من المجالات الحيوية، فلا بد، من البدء برؤية كيف يجب على الإستراتيجية البيئية العالمية، من منظور كوزموبوليتاني، أن تحول السياسة الدولية والعلاقات بين الدول، وأيضاً داخلها، إلى عدم تجاهل دور البناء البيئي الثقافي، في سلوك الدول؟

وهذا يتطلب مستقبلاً من الناحية الإستراتيجية، التقليل من التشديد المفرط على القدرات العسكري، والتفوق الاقتصادي والسياسات الأمنية، على حساب الجوانب الأخرى من الضمانات الإنسانية البيئية الأيكولوجية، والملائمة الأخلاقية للقضايا العالمية، التي تؤثر في الأمن العالمي.

★ باحث أردني في العلاقات الدولية
مقيم في بيروت

على هامش الصراحة

■ إحسان شمران الياسري

كل خميس:

إستذكاراً لصراحة (أبو كاطع)

نواصل في هذا العمود إعادة نشر بعض ما كتبه الراحل (شمران الياسري- أبو كاطع) في عموده الشهير (بصراحة أبو كاطع) قبل أكثر من ثلاثة عقود، لنُريح الناس، وليستذكروا سخريته ممن كانوا مسؤولين عن خلق المعاناة لهم..

حتى أنت ياخلف الدواح؟!

إذا أحسنت اتقاء الصدمة الأولى.. ووفقت في توجيه شحنة العتب إلى موقع لدن، لتجنب ردود الأفعال المتشنجة، تكون قد احتفظت بصديق، مثل خلف الدواح، وأفلحت في عودته إلى سيرته الأولى ودودا بشوشا، بعد أن أدرك حضوره الدائم في ذهنك، لكن (الميانه) وزحمة العمل هما السبب في عدم مكاتبته.

وأخيرا يضحك ويقول:

-ايه يا ابو كَويطع..

سويتها.. وسويتها، وصرت تلميد بتوالي العمر.. وعلى غير توقع يسمعني كلمة مديح:

-أعرفك، تبيض الوجه.. لو ما أعرفك هيچ ما چان صادتك..

وهسه أكيد تكوم تحط جدام اسمك دال (د. أبو كَاطع) مادام جبت لك دبلوم امنكَش، وبيه كركوشتين بريسم..

والعليهن كلهن تاخذلك وحده أم ستعش الف.. أجبته ببرود:

- لا، حسبة أم ستعش الف ما أتصير، لان مدتي ست أشهور.

قال مهونا:

- ميخالف، أخذلك وحده على كَد الست أشهور.. مثلات موسكوفج.

ووجدتني أحوّل وجه الحديث من الدعابة صوب الجد، وأتوجه إليه عاتبا:

حتى أنت يا خلف الدواح صارت (الستعش الف) من همومك؟!

وكنت قد وطنت نفسي - وأنا أزورك للمرة الثانية - على مواجهة أسئلة من هذا الصنف: كيف نتجاوز مسافة التخلف التي تفصلنا عن العالم المتقدم؟ وكيف نزيل الركام الهائل الذي ورثناه من عهد الاستعمار وعملائه من الإقطاع والرجعية؟ كيف نحوّل وطننا إلى جنة خضراء، كالتي تصفها هناك، حيث لا تقع العين على شبر غير مكسو بالخضرة؟ كيف ومتى تصبح زراعتنا تعاونية متقدمة مخططة، مثل التي تحكي عنها؟ يا خلف الدواح إذا أصبح الآلاف بآلاف، صار كل واحد (فلك) يدور حول نفسه ولنفسه فمن يبني هذا الوطن؟

هتف بي غاضبا وقال:

-افا، أنا أبو الحسين..

انوب هيچ صارت، سويتني آنا المنتهم؟!

يبين أنت هم صاير ما تتحمل (شقا).

الحچاية وما بيها يا (أبوتاطع) هذوله الناس اللي يكَدرون يشترون ام ستعش الف، وعدهم فلوس هواي هواي، ليش يصرفون الفلوس بهالشكل..

ما أيصير نخليهم يحطونها بشغلة شراكة وي القطاع العام، مثلا، ونبني بيها مصانع، معامل زغار وكبار ويكثر الخير، وكل المصبات تصب بالنهر الچبير اللي يشرب منه الجميع؟!

كاريكاتير

■ عادل صبري

الأمّـة العـراقيّة وإشكاليّات بنـاء الـدولـة

حسين علي الحمداني

ومفهوم الأمة أصابته تشوهات كبيرة وكثيرة في العراق بشكل خاص والعالم العربي بصورة عامة وأخذ مفهوم (الأمة) بعده القومي دون أن يأخذ مداه داخل الدولة ومكوناتها، وبالتالي ترك هذا التشوه أو الفهم الخاطئ لمفهوم الأمة أبعاده في مرحلة ما بعد تهاوي النظم الشمولية وبداية تكوين الدولة على أسس القانون والمواطنة، بعيدا عن الإقصاء والتهميش الذي كان السمة البارزة للعقود السابقة التي كانت القومية كمبدأ وفكر هي من تحكم وتتحكم ووفق رؤيتها وتحدد المسارات وتخطط وفق الأهداف التي تريد الوصول إليها حتى وإن تعارضت مع مصالح الشعب.

وربما الحالة العراقية قد انفردت عن غيرها من الدول العربية بطرح هذا المفهوم في الدستور العراقي لعام ٢٠٠٥ ونقصد به مفهوم (الدولة والأمة)،وهذا الانفراد يعني في ما يعنيه بأن العراق الجديد هو عراق الجميع وليس عراق قومية دون سواها ودينه دون أخرى ومذهب على حساب الآخر.

وكانت عملية الطرح هنا ذات أبعاد سياسية أكثر مما هي أبعاد ثقافية تهدف إلى بناء المجتمع وفق مفهوم الأمة في سياق الدولة الواحدة، وبالتالي فإن أهم مقومات الأمة وجود (الدولة) بمفهومها المعروف للجميع من حيث أن الارتباط التاريخي بين (الشعب والأرض) و(الأمة والدولة) وهذا السياق التاريخي له أبعاد ثقافية واجتماعية أكثر من أبعاده السياسية ولنا في تجربة ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث برزت (ألمانيا الغربية والشرقية) وحاول المعسكر الشرقي آنذاك الفصل التام ولكن السياق التاريخي وبعد نصف قرن من الزمن أعاد توحيد الأمة الألمانية في دولة واحدة وهو ما كان يجب أن يحصل لكونه هو السياق الصحيح والمطلوب، وبالتالي فإن هذا يؤكد أن الأبعاد الثقافية هي الأقوى من السياسية في توحيد الأمة وتغليب مصلحتها. ولنا في دول العالم تجارب تعايش في إطار الدولة الأمة، وعلى سبيل المثال لا الحصر سويسرا وبلجيكا. وفي العراق تأريخياً بدأ مشروع بناء الأمة العراقية في عام ١٩٥٨ بعد سقوط النظام الملكي ونلاحظ عند كتابة الدستور آنذاك وفي البند الثالث الذي كان ينص على أن العراق وطن مشترك بين العرب والكرد، أبدى الكرد دعمهم ووقوفهم مع الدولة العراقية وفق مبدأ الشراكة والمشاركة.

وهذا ما يقودنا لاستنتاج بأن الدستور بحد ذاته هو الضامن الحقيقي لتفعيل الكثير من المفاهيم ومنها بالتأكيد مفهوم (الدولة والأمة) وهذه الضمانة تجرد الجميع من قوتهم لتمنحهم قوة القانون والدستور أي قوة (الأمة الواحدة في الدولة الواحدة) وبالتالي وجدنا بأن الكرد مثلا حين شعروا ببروز التيارات القومية ذات النهج الإقصائي للآخرين نجدهم بدأوا مرحلة نضال جديدة سببها الرئيس يكمن في حصر الدولة بفئة وقومية معينة دون غيرها، هذه الحالة لم تكن في العراق فقط بل في مناطق أخرى من العالم كجنوب السودان أو إقليم كوسوفو أو حتى إقليم الباسك في إسبانيا.

لهذا فإن ما موجود حالياً في العراق هو نظام سياسي فدرالي في إطار دولة جامعة للكل، ولكن ما نراه الآن مختلف تماماً حيث تم تغييب الدولة بشكل أو بآخر وغابت معها صورة الأمة العراقية لتبرز بدلا منها صورة الهويات الفرعية والمناطقية والأثنية والعرقية لدرجة بدأ البعض يخشى من نهاية الدولة الأم وبروز الدول الفرعية.

وهذا نابع من قُصر نظر القائمين على الشأن السياسي وعدم إدراكهم لمعنى الدولة ومفهوم الفدرالية وتغييبهم القواسم المشتركة بين الشعب.

من هنا يمكننا القول بأن المجتمع هو الذي يفرز الدولة ويمنحها هويتها، وهكذا نرى بأن الركن الثقافي يحتل مركزا مهما في بنية السياسة، وفي تكوين الدولة. وبهذا الصدد ثمة عدة رؤى فكرية ولكل منها مبرراتها وحججها. هناك من يؤمن بقوة بأن البداية ينبغي أن تكون ثقافية لتأسيس الدولة. من خلال بناء المجتمع أولا ومن ثم الانطلاق من هذا البناء ذاته في عمليات إبراز طور الأمة، والدولة، وهذا يعني بأن الدولة ليست مجرد حكم بقدر ما هي كيان قائم على مجموعة أفكار تنصهر لتصل مرحلة التكامل الفكري والثقافي لتعكس واقع المجتمع المتعدد القوميات لكنه يلتقي في أطار واحد هو إطار الأمة أو ما يمكن تسميته بالأمة العراقية في الدولة العراقية، ومصطلح الأمة كما أشرنا غاب عن الفكر السياسي والثقافي في العراق منذ عقود طويلة وصاحب هذا الغياب تغليب مشاعر ثانوية وصلت حد العداء والتنافر والتشظي.

الحديث عن العراق ومستقبله السياسي بعد عام ٢٠١٢ ومحاولة بلورة رؤية مشتركة ليس فقط بين النخب السياسية، بل بين مكونات الشعب العراقي، هذا الشعب المعروف عنه التنوع القومي والديني الذي اتسم بالتعايش قروناً طويلة، وحق للبعض أن يطلق تسمية الأمة العراقية منطلقاً من تعليلات كثيرة تُبيح له استخدام هذه التسمية في الكثير من الكتابات.